مقدمة

الدين ظاهرة اجتماعية نشأت عند الإنسان الأول في مرحلة بدائيته، تحت تأثير ارتباطه ببعض القوى الطبيعية ومظاهرها، واضطراره إلى التقرب إليها مستهدفاً الاستزادة من النفع أو التقليل من الضرر. ولم يكن هذا التقرب إلا على أساس التعبد إليها وتقديسها. وتمثلت قوى الطبيعة في الشمس والقمر والسماء والأرض والريح وغير ذلك، أما مظاهرها فقد كانت حسب بيئته، وتتمثل في الحيوانات الضارية، أو المستأنسة والطيور والأشجار والنباتات. وهكذا تعددت المعبودات واختلفت في كنهها.

ولكي يجعل الإنسان الكون مفهوماً بالنسبة إليه فهو يخلقه من جديد على أساس خبرته الذاتية أي أنه يستأنس العالم.

إن الإنسان يرى في العالم الخارجي أداءً لدراما إنسانية يحركها مغزى أخلاقي؛ أي أنه يرى أن العالم يوجه بشكل إنساني نحو مكافأة أولئك الذين أدَّوا ما طلب إليهم من التزامات، وحرمان أولئك الذين فشلوا في أداء التزاماتهم. فهو يعتقد أنه لم يعد يعيش في كون ميكانيكي أعمى. وهذا التفكير هو من قبيل التمني الذي تتضمنه كل ديانات العالم، ويتخذ شكلاً سلوكياً في أساطير الأقدمين وفي علوم اللاهوت، وشكلاً تصورياً في الأساليب الدينية من استرحام الآلهة واسترضائهم وإقامة علاقات الوئام معهم، وهذا الشكل يعتبر من أعظم ابتكارات العقل البشري. ويلازم هذه الأساليب الدينية واقع حتمي يدفع المؤمن إلى العمل طبقاً لمقتضيات معتقداته، وتبعاً لطبيعة ومعنى الكون كما يتكشَّف له. والدافع إلى العمل بهذا الأسلوب يكوّن المضمون الخلقي والاجتماعي لكل الخبرة الدينية الأصليّة، ومنه تنشأ الوسائل والأساليب الدينية التي تكاد تكون موجودة في كل المجتمعات البشرية في العالم أجمع، وهي:

- السحر: وهو محاولة إجبار أو استرضاء أو إلزام قوى ما وراء الطبيعة.

- التبجيل: وهو خليط من الرهبة والحب والإعجاب التي يقدمها الإنسان إلى قوى ما وراء الطبيعة.

- العرافة: أي التنبؤ بالغيب أو المستقبل.

- التضحية: أي التحكم بواسطة الهدية وفيها يرغم الإنسان القوة فوق الطبيعية على رد هديته وذلك بأداء ما يريده من تلك القوة، أو أنه يبغي مجرد إرضاء قوى ما وراء الطبيعة.

- التمائم والأحجبة: وهما جانبان من جوانب السلوك الديني. فمعاملة القوة فوق الطبيعية على أنها صفة لأشياء معينة تجعل من تلك الأشياء تمائم، وإذا ما عوملت الأشياء على أنها موطن أو منزل للأرواح أصبحت فيتشات (أشياء مقدسة).

- الصلاة: وهي الاتصال بقوى ما وراء الطبيعة عن طريق الكلام.

وهناك بالإضافة إلى ذلك الاعتقاد في الأرواح الحارسة والجن والملائكة والأرواح الشريرة وغيرها. والإجبار أو الإكراه والاسترضاء هما طرفا النقيض في السلوك الديني الذي يقيم الشخص بواسطته علاقة بقوى ما وراء الطبيعة، وبين هذين النقيضين توجد كل درجة ممكنة من درجات الإكراه والاسترضاء أو منهما معاً.

والأساليب المذكورة هي صور السلوك التي توجد في كل ما نلم به من نظم دينية. ولا شك في أن معالجة الممارسات والطقوس الدينية ارتبطت لدى كثير من الكتّاب (والقدامى منهم بصفة خاصة) بالنظرات التأمّلية والافتراض والظن والتخمين. حتى أنه يمكن القول إن أهمية هذه الدراسات - تلك التي عرض لها علماء الأديان المقارنة - لا تعدو أن تكون مجرد تراث في تاريخ العلم والمعرفة الأنثروبولوجية. وإن كان هذا لا يمنع أن بعض الفلاسفة الأخلاقيين والاجتماعيين والسياسيين من أمثال «هوبز» *T. Hobbes* و«لوك» *J. Locke* و«روسو» *H. Rousseau* و«سبنسر» *H. Spencer* و«برغسون» *H. Bergson* وكذلك «تايلور» *E. Tylor* و«فريزر» *J. Frazer* ... لعبوا دوراً مهماً في تاريخ الفكر بصفة عامة، وقد نظروا إلى حقائق الحياة الدينية على أن لها أهمية بالغة لفهم الحياة الاجتماعية في عمومها، ومن هنا كان اهتمام العلماء والباحثين بدراسة الإنسان والنظم الدينية وبخاصة لدى

الشعوب البدائية. يقول «إيفانز بريتشارد» ***Evans-Pritchard*** في كتابه (***Theories of Primitive Religion***): «إن الديانات البدائية هي بمثابة أنواع لديانات، وإن دراستها بما تحويه من أفكار وممارسات تختلف عما لدينا من أفكار وممارسات قد تساعدنا في الوصول إلى استنتاجات محددة حول طبيعة الدين بصفة خاصة»[1].

ولا يختلف «هيرفه روسو» ***H. Rousseau*** حين يؤكد أهمية الاتجاه إلى دراسة الشعوب البدائية بسيطة التكوين قائلاً: «إن البحث عن جوهر الدين في الآثار القديمة التي يمكن الوصول إليها لا يجدي، إذ يجب أن نتجه إلى الشعوب البدائية».

أما «روبرتسون سميث» ***Robertson Smith***[2] فإنه يرى ضرورة التركيز من أجل الكشف عن تطور الفكر الديني والشعائر الدينية وتحليلها في ضوء الظروف الاجتماعية العامة التي نشأت فيها.

إذ إن الاهتمام بالعناصر الاجتماعية في الدين ضرورية إذا ما أردنا الوصول إلى فهم عميق للعقائد والشعائر في أي دين من الأديان، وبخاصة في المجتمعات البسيطة فإننا في أمس الحاجة إلى إعطاء جانب كبير من العناية لدراسة المكونات الاجتماعية في هذه العقائد والشعائر على أساس أن الدين يعتبر بمثابة الموجه للحياة الاجتماعية من ناحية، كما أنه جزء من ثقافة تلك المجتمعات من ناحية أخرى، ومع أن هذه النظرية أفلحت في توجيه المدرسة الفرنسية - إميل دوركهايم ***Émile Durkheim*** بالذات - في دراستها للدين البدائي. إذ يمكن اعتبار «روبرتسون سميث» المسؤول الأول عن نظرية «دوركهايم» كما وضعها في كتابه (الصور الأولية للحياة الدينية). أما «بول رادين» ***Paul Radin*** في كتابه (***Primitive Religion***) فيرى أننا إذا أردنا أن نشرح دلالة الدين أو نلقي الضوء على طبيعته، فإن هذا أمر صعب إلى حدّ بعيد لأنه يشير إلى أشياء مختلفة لشعوب متباينة، ونحن نرى أنه يشتمل على دلالتين: الأولى، يمكن تحديدها بسهولة تتمثل في المشاعر المرتبطة. والثانية، تتمثل في الأفعال المحددة والمؤكدة والأعراف والمعتقدات والمفاهيم المرتبطة بهذه المشاعر. فثمة اعتقاد بأرواح خارج نطاق الإنسان تُدرك كما لو كانت أكثر قوة من الإنسان

---

[1] **E. E. Evans-Pritchard: Theories of Primitive Religion, Oxford University Press, 1965, pp.1-2.**

[2] يمكن القول إن «روبرتسون سميث» وضع في بريطانيا أسس ما يمكن تسميته بالأنثروبولوجيا الدينية.

ومسيطرة عليه تماماً. وكلاهما يمكن النظر إليهما كما لو كانا مرتبطين ويشكلان كلاً متصلاً ومتماسكاً لا ينحل، وهذا ما أكده «إدوارد تايلور» *Edward Tylor* في كتابه الذي صدر منذ قرن أو يزيد حين ذهب في معرض حديثه عن الثقافة البدائية إلى أن الدين يشير إلى الاعتقاد في الكائنات الروحية، أما «جيمس فريزر» *J. Frazer* فيذهب في كتابه (الغصن الذهبي) إلى أن الدين هو محاولة استرضاء واستعطاف أو مصالحة القوى أو الكائنات العليا التي يُعتقد أنها توجه وتسيطر على الطبيعة وحياة الإنسان. والدين عنده يشتمل أيضاً على عنصرين نظري وعملي، والاعتقاد في القوة الخارقة من ناحية ومحاولة استرضائها من ناحية أخرى. هذا الاعتقاد تعقبه ممارسات. وهكذا نجد تايلور وفريزر ورادين قد ركزوا على ارتباط الدين بظهور فكرة الآلهة أو الأرواح، وهذا ينطبق إلى حدّ بعيد مع ما ذهب إليه «جيبو» *Guyau*، والذي يرى أن مصطلح الدين مُشتق من الفعل اللاتيني *Religare* بمعنى «جمع أو ربط» (بين الرجال و الآلهة، أو بين ما هو إنساني وما هو فوق إنساني). وقد أخذ بهذا التفسير «لاجراسري» *De Lagrasserie*، ثم ذهب إلى أن الدين هو ارتباط جماعة إنسانية بإله أو عدة آلهة، بمعنى أن كل ديانة تجمع بين معتنقي الديانة الأحياء منهم والأموات وآلهتهم في مجتمع واحد يعتبر جزءاً لا ينفصل عن الكون الطبيعي والوجود الحيوي[1].

ومن ناحية أخرى، نجد فريقاً آخر من العلماء والباحثين يرى بوجود أديان لا تشتمل على آلهة أو أرواح، مثل «دوركهايم» فليس بوذا إلهاً (لأنه لا يملك شيئاً من تغيير مجرى الحوادث الإنسانية) ويقول إن السمة الوحيدة المشتركة بين الأديان هي (القداسة) ويتفق الكثيرون مع «دوركهايم»، مثل رجل الدين السويدي (*Nothan Söderblom*)، حيث يرى أن الدين هو علاقة البشر بما يعتبرونه مقدساً، أو بالقوى غير البشرية التي يؤمنون بها، لأنهم يستشعرون خضوعهم لها. أما «موريس جاستروف» *M. Jastrof* فيقول إننا إذا أردنا تعريف الدين فلا بد أن نأخذ في الحسبان المبادئ التالية:

1- شعور الناس بوجود قوة أو قوى متعددة أعظم منهم شأناً وغير مسخّرة لهم.

---

[1] د. أحمد الخشاب: دراسة في النظم الاجتماعية (المجتمعات المتخلفة والنظم الدينية)، القاهرة 1958، ص 193.

2- اعتقاد الناس بأن لهم صلة بهذه القوة أو القوى.

3- سعي الناس إلى محاولة إيجاد واسطة لتوثيق هذه الصلة.

وتتضمن هذه المبادئ أو القواعد الشعور والاعتقاد والعبادة[1].

لن نخوض في هذه التعريفات تفصيلاً فثمة محاولات عديدة قد سارت في هذا الاتجاه، لكن ما يعنينا هنا أن نؤكد أن المجتمعات مهما كانت درجة حضارتها أو ثقافتها فإن لها أنساقها الدينية شأنها في ذلك شأن بقية الأنساق المحددة والمعروفة، ولها مشاعرها ومعتقداتها وممارساتها أو طقوسها، والتي قد تختلف حتى في نطاق المنطقة الثقافية الواحدة، كما سنرى حين نعرض للممارسات الدينية في جنوبي كردفان. وما من نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي إلا ويرتكز بطريقة أو بأخرى على فكرة دينية، فإذا أمعنا النظر في الحياة الأخلاقية والفضائل والممارسات والاحتفالات أو العادات الجمعية لدى شعب من الشعوب لوجدنا تأثراً واضحاً بالأفكار التي يعتقدونها. يقول «بول رادين» *P. Radin* إن الدين له تأثيره على الحياة وما يرتبط بها من قيم أساسية، وأهم هذه القيم هي الرغبة في النجاح والرغبة في تحقيق السعادة والرغبة في طول العمر - وبالمثل فإنه يمكننا التعرف على العقائد، وأهم هذه المعتقدات تلك التي تشير إلى الاعتقاد في الأرواح، والتي تمنح نجاح الإنسان وسعادته وطول عمره.

ودراستنا هذه لن تتناول من قريب أو بعيد نشأة الأديان وإن كنا نستهدف أساساً رؤية أنثروبولوجية تعتمد على دراسة حقلية لفهم المعتقدات والممارسات الوثنية في عدد من المجتمعات الوثنية التقليدية، والتي قام الدكتور فاروق إسماعيل (من جامعة الإسكندرية) بدراستها على فترات متقطعة ما بين عامي 1977 و1982 في مناطق جبال «الإنقسنا» *Ingasana* شرق السودان ومناطق جبال «كارلنجا» *Karlenga* وجبال «كورنجو» *Korongo* جنوب كردفان. ولا شك أن معالجة المفاهيم والممارسات الوثنية على درجة عالية من التعقيد لأن كل ديانة لها جوانبها الذاتية سواء في العقيدة أو الممارسات، وليست محاولتنا هنا تسجيل مظاهر الحياة الدينية لهذه العقيدة أو تلك من أجل أهميتها، ولكن أستهدف فقط عرض هذه

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان وفلسفتها، دار مكتبة الحياة - بيروت 1963، ص 28-30.

المفاهيم والممارسات كنظام مسيطر وتقاليد متوارثة في مجتمع معين وما قد يعتريها من التغيير نتيجة الاتصال الثقافي الحادث والمتزايد والذي أصبح أكثر عمقاً وأشد وضوحاً، إذ إن ثمة ظروف متغيرة تمثلت في تمهيد بعض الطرق أو سرعة الانتقال، كما أن النظام الإداري والحكم المحلي الحادث أضعف بدوره سلطة كبار السن، بل وسلطة الزعماء التقليدية، فضلاً عن انتشار التعليم سواء عن طريق الإرساليات التبشيرية المسيحية أو الخلاوي الإسلامية المنتشرة هنا وهناك.

ولا يسعني هنا إلا أن أكرر ما ذكره «بول رادين» حين قال: «يجدر بنا أن نكون على قدر من الشك، لأنه من الصعب على الباحث أو الملاحظ الأجنبي مهما حاول أن يكون محايداً أن تخلو تعبيراته أو أحكامه، أو حتى مجرد نظرته من بعض الأحكام الذاتية، فالميراث الثقافي والعقائدي وتعبيراته الشخصية قد تؤثر في عرضه للمادة الأثنوغرافية، فإذا ما أردنا المزيد من الدقة والوضوح فإنه ينبغي:

1- تعلم لغة الأهالي.

2- أن يكون الأثنوغرافي على دراية بالنسق الكلي للمفاهيم، بل الأنساق الاجتماعية برمتها، فالمعتقدات الوثنية تمتد إلى شتى مناحي الحياة كما أشرنا.

3- ولا بد أن يكون الباحث على دراية بالفكر الوثني، ولا أعني هنا أنني أؤيد منطق «ليفي بريل» *Lévy Bruhl* وموقفه من العقلية البدائية وأنها نمط متمايز في مقابل العقلية المتحضرة، وأنها تختلف في الدرجة والنوع ولا تستطيع الوصول إلى العلاقات السببية أو العلية، وإنها قبل منطقية - ولكن أميل إلى الرأي القائل إن الوثني يركز على الأفعال والممارسات أكثر مما يركز على الفكر والتأمل، إنه يفتقد إلى التصورات العقلية المحددة الواضحة، فالإله «تل» في جبال الأنقسنا الكائن الأسمى خالق البشر مصدر الحياة والخير لا يفعل الشر - الشر مرده إلى الشيطان «نقند» وهو المسؤول عن الموت والدمار... فإذا ما مات أحدهم توجهوا بالسباب واللعنات إلى «تل» ووصفوه بالجبن والخسة. إن الوثني يعتقد أن الإله «موسلا» هو الخالق الأسمى والكائن الأول ويحتل قمة البناء الكهنوتي، إلا أنه لا يتقدم إليه بالقرابين، وإنما يتقدم إلى «الكجور» فهو أكثر فاعلية وقوة، وكذلك أفكارهم عن أرواح الأسلاف والقوة الكامنة في زعامتهم الروحية. بمعنى آخر، إن مدركاتهم

العقلية تتضمن تصورات غامضة، على حد تعبير «إيفانز بريتشارد»، إنهم يدركون ويلاحظون ويوجهون اهتمامهم إلى قليل مما يرونه ويسمعونه، إن التصورات الجمعية التي تسيطر على مدركاتهم انتقائية أو اختيارية[1].

فالوثني يعزي سقوط المطر إلى ما قام به «الكجور» من ممارسات، إنه يتعامل معه كما لو كان شيئاً ملغزاً يتعامل بدوره مع الآلهة أو روح الأسلاف، ولو فكر بعض الوقت لأدرك أن هذا موسم سقوط الأمطار، وأن الرياح الموسمية الشمالية منذرة بسقوط المطر، وأن السحب لا تلبث أن تتجمع في السماء ثم تسقط، فإذا حاولت أن توضح له ذلك أجاب أن كجور المطر هو الذي فعل كل هذا، إنه لا يفكر إلا في معاناته النفسية والمخاوف التي تنتابه إذا لم يسقط المطر، ومن ثم يلجأ إلى الكجور. ولعل «لوي» ***R. H. Lowie*** الذي درس هنود (الكرو) ***Crow*** يقدم لنا مساهمة مهمة حين يقول في هذا الصدد: «إن الدين البدائي إنما يحدد بخصائص أساسية تتمثل في الإحساس بالغرابة وعدم المألوف والغموض والقوى الخارقة للطبيعة، وإن الاستجابة العقائدية لديهم تتمثل في الذهول والحيرة والرهبة والخوف»[2].

والفكرة ذاتها يشير إليها «بول رادين» ***P. Radin*** في مقدمة كتابه حين يركز على ما أسماه بالمشاركة الجماعية ضد الخوف وقد تمثل ذلك الوضع بين جميع الناس وتبلور في:

أ- الحقيقة الفيزيولوجية للميلاد.

ب- المراهقة.

ج- المرض.

د- الموت.

كما تمثل في صراع الإنسان وخوفه ورهبته من الطبيعة القاسية المحيطة به من ناحية، وصراعه مع الإنسان وصدامه المستمر معه من أجل البقاء.

إن الطقوس والشعائر والممارسات الوثنية تُحترم كنوع من التعبير الصريح أو الرمزي في نطاق الإطار الثقافي السائد، للتعبير عن المشاعر الغامضة تجاه البناء

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، (دراسة أنثروبولوجية)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1987، ص 15-17.

[2] المرجع نفسه، ص 18.

الكهنوتي من ناحية، والطبيعة الإنسانية والحيوانية من ناحية أخرى، بل وتجاه الطبيعة في عمومها، ومن ثم فإنها تخلق دوماً أدواراً جديدة للأفراد من معتنقي الديانة، وتوضح الكثير من المعاني وتجدد من حيوية الجماعة، بل وتقلل من القلق والتوتر الناجم عن المواقف الحيوية كالميلاد والبلوغ والتكريس والزواج والمرض والموت والحظ العاثر حيث يناط بالفرد القيام بأدوار جديدة أو مسؤوليات جديدة أو معاناة في الحالات النفسية الطارئة التي تستند عليها مواقف الحياة. ومن ثم فإن الممارسات والطقوس الشعائرية وما تحويه من اختبار للصبر والشجاعة والرجولة والطهارة والمقدرة على الحياة الروحية تستهدف المزيد من القدرة على التكيف مع الذات أو مع العالم الغيبي[1].

ويمكن القول إن هذه الدراسة قد سارت وفق خطة منهجية يمكن بلورتها في:

أ- عرض للمادة الأثنوغرافية لعدد من المفاهيم والممارسات الوثنية.

ب- الاعتماد على الوصف العلمي والتحليل المقارن للعقائد والممارسات والطقوس، وارتباط ذلك بحتمية الإشارة إلى هذه الطقوس والممارسات في مجتمعات أخرى، دعماً للفائدة المرجوة من هذا العرض الأثنوغرافي.

ج- إن معالجة الظواهر الدينية باتباع المنهج المقارن سوف يحتم علينا تحليل نسق المعتقدات إلى عناصره الأساسية من أجل مزيد من الوضوح والفهم خاصة تلك التي تتعلق بمفهوم الألوهية أو الكائن الأعلى والنزعة الروحية وعبادة الأسلاف والأساطير والقرابين والقداسة والمانا والسحر ...إلخ.

---

[1] د. فاروق إسماعيل: المرجع السابق، ص 18- 19.

تمهيد

لماذا المجتمعات البدائية؟

اهتم الأنثروبولوجيون الأوائل بدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات البدائية، إذ اجتذبتهم غرابة تلك المجتمعات واختلافها عن المجتمعات الأوروبية، ويمكن تلخيص الأسباب التي دفعت الرعيل الأول من الأنثروبولوجيين إلى ذلك الاتجاه فيما يلي:

1- كان أهم ما يبحثون عنه هو اللغات والعادات الغريبة التي تختلف وتتناقض مع لغات وعادات مجتمعاتهم الأوروبية المتمدنة وأصبح هذا تقليداً على مر السنين، فبينما يهتم الأنثروبولوجيون بالمجتمعات البدائية، يهتم علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد وعلماء السياسة بالمجتمعات المتحضرة التي تعرف على الأقل القراءة والكتابة. ويرى بعض الأنثروبولوجيين أن الاهتمام بالمجتمعات البدائية يعد أهم ما يميز الأنثروبولوجيا عن العلوم الاجتماعية الأخرى[1].

وقد أصبح هذا القول غير صحيح في القرن العشرين، حيث انتشرت الدراسات الأنثروبولوجية الخاصة بالمجتمعات المتمدنة وخاصة القرى. وكذلك ظهرت بعض الدراسات المختصة بتحديد معالم ثقافات المجتمعات المتقدمة، مثل المجتمع الأمريكي والصيني والروسي.

2- يتميز علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) بالنظرة الكلية الشاملة ***Holistic method***، أي المنهج الكلي التكاملي الذي يهدف إلى تحديد جميع عناصر الثقافة في مجتمع ما. فمثلاً إذا درس الأنثروبولوجي قبيلة «الشلوك» في السودان عليه أن

---

(1) د. عاطف وصفي: الأنثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية - بيروت **1971**، ص **14-15**.

يبحث كل عنصر مادي أو اجتماعي أو فكري في حياة تلك القبيلة، بحيث يصل في النهاية إلى تحديد طريقة الحياة التي يعيشها أفراد تلك القبيلة، ولذلك يهتم بملاحظة مساكنهم وملابسهم وأدواتهم ونظام العائلة والقرابة والنظام الاقتصادي والمعتقدات والطقوس الدينية واللغة المستخدمة والسحر ووسائل الضبط الاجتماعي من سنن اجتماعية وتقاليد وكذلك يحدد صور الفن المنتشرة، كما يعنى أيضاً بدراسة النظام السياسي والجماعات والأدوار الاجتماعية للأفراد في داخلها. وخلاصة القول إن الأنثروبولوجي يدرس كل أنماط السلوك المكتسبة في تلك القبيلة لكي يستطيع تحديد عناصر ثقافتها. إن التزام علم الإنسان بالمنهج الكلي التكاملي يدفع الأنثروبولوجي إلى الاهتمام بالمجتمعات البدائية صغيرة الحجم، حيث يصبح بالإمكان تطبيق المنهج التكاملي، وحيث يستطيع عالم واحد الإلمام بكل جوانب ثقافة المجتمع.

يهتم فرع الأنثروبولوجيا الاجتماعية بتحليل البناء الاجتماعي للمجتمعات الإنسانية، وخاصة (المجتمعات البدائية) التي يظهر فيها بوضوح تكامل ووحدة البناء الاجتماعي، ومن أهم النظريات التي تسود اليوم أبحاث الأنثروبولوجيا الاجتماعية (النظرية الوظيفية) للعلاّمة «رادكليف براون» وأساسها أن النظم الاجتماعية في مجتمع ما، ما هي إلا نسيج متشابك العناصر يؤثر كل عنصر في العناصر الأخرى، وتعمل تلك العناصر على خلق وحدة اجتماعية تسمح للمجتمع بالاستمرار والبقاء[1]. إن كلمة (بدائي) بالمعنى الذي تستخدم به في الكتابات الأنثروبولوجية لا تعني أبداً أن المجتمعات التي توصف بتلك الصفة أسبق في الزمن أو أدنى في المنزلة من أنواع المجتمعات الأخرى. فمن المعروف أن لتلك المجتمعات تاريخاً طويلاً قد يماثل في طوله تاريخ المجتمعات الأوروبية ذاتها، وأنه إذا كانت هذه المجتمعات لم تتطور في بعض النواحي بنفس النسبة التي تطور بها المجتمع الأوروبي فإنها تفوقها تطوراً في نواحٍ أخرى، وعلى ذلك فربما كانت كلمة (بدائي) اختياراً غير موفق ولكنها أصبحت الآن اصطلاحاً واسع الذيوع والانتشار إلى حد لا يمكن معه تجنبها. بالإضافة إلى ذلك، لا يوجد أحد من الأنثروبولوجيين المعاصرين يعتبر

---

[1] د. علي الجباوي: الأنثروبولوجيا، جامعة دمشق 1988، ص 257-258.

الحضارة مختلفة نوعياً عن الثقافة، كما لا نجد أي أنثروبولوجي يميز بين شعب متحضر وآخر غير متحضر، فجميع الحضارات، بما فيها الحضارات العظيمة المعاصرة أو القديمة، ليست سوى مراحل خاصة في تطور الثقافة، تتباين في ثراء مضمونها وفي تعقّد تركيبها، ولكنها ليست مختلفة نوعياً عن ثقافات الشعوب التي تسمى شعوباً بدائية.

ولا شك أن استخدام مصطلح (بدائي) للكلام عن تراث الشعوب التي تبدو لنا غريبة، أو غير مألوفة، هو بالطبع أسلوب غير أنثروبولوجي. فالثقافة موجودة في لندن وباريس تماماً كما هي موجودة عند شعوب الأسكيمو والنافاهو والسودان...إلخ[1].

إن الأنثروبولوجيين حين يستخدمون كلمة (بدائي) فإنهم يقصدون بها الإشارة إلى المجتمعات الصغيرة سواء من ناحية عدد السكان أو المساحة أو تشعب العلاقات الاجتماعية، والتي تمتاز ببساطة الفنون الآلية والاقتصاد وقلة التخصص في الوظيفة الاجتماعية إذا قورنت بالمجتمعات المتقدمة. ويفضل بعض الأنثروبولوجيين أن يضيفوا إلى ذلك مقاييس ومعايير أخرى، أهمها عدم وجود تراث مكتوب وبالتالي عدم وجود أي فن أو علم أو لاهوت منهجي منظم.

إن المجتمعات البدائية أفلحت لأسباب عديدة في أن تستحوذ على انتباه المشتغلين بدراسة النظم الاجتماعية، ويبدو أن معظم العلماء التطوريين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانوا يذهبون إلى أن الشعوب البدائية التي لا توجد الآن - أو على الأصح التي كانت تعيش على أيامهم - تمثل أدنى المراحل التي مرت بها البشرية، وأنه بناءً على ذلك فإن ترتيب الشعوب والمجتمعات التي توجد الآن حسب درجة تقدمها وارتقائها إنما يعطينا صورة واضحة ومتكاملة عن كل المراحل التي مر بها المجتمع الإنساني منذ وجد حتى الآن. وهذا معناه أن الاهتمام الزائد الذي كان يبديه هؤلاء العلماء بدراسة ما كان يُعرف حتى عهد قريب باسم (الشعوب البدائية) لم يكن اهتماماً بتلك الشعوب لذاتها، وإنما لاستخدامها في إقامة نماذج ومثل افتراضية كانوا يعتقدون أنها تمثل التاريخ المبكر للجنس البشري

---

[1] رالف ل. بيلز: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، ترجمة: محمد الجوهري، القاهرة 1990، ص 143.

بعامة، وتاريخ النظم الأوروبية بخاصة. ولذا فليس من الغريب أن نجد علماء ذلك العصر يكتبون «ما كانوا يعتبرونه تاريخاً، لأن كل العلوم والمعارف كانت تتجه في ذلك الوقت اتجاهاً تاريخياً في أساسه. وقد أخذ هذا الاتجاه النشوئي ***Genetic*** الذي أثمر ثمرات طيبة في الفيلولوجيا يظهر في القانون واللاهوت والاقتصاد والفلسفة والعلم، فكانت الجهود الدائبة العنيفة تبذل في كل ميدان للكشف عن أصول الأشياء: أصل الأنواع وأصل الدين وأصل القانون وما إلى ذلك، وهي كلها مجهودات ملحة كانت تهدف دائماً إلى تفسير الشيء القريب بالشيء البعيد[1].

لقد جذبت المجتمعات البدائية انتباه فلاسفة القرن الثامن عشر على اعتبار أنها تمثل الحالة الطبيعية الأولى التي يظن أن الإنسان كان يعيش فيها في عصور ما قبل التاريخ. كذلك اهتم بها علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر لاعتقادهم أنهم واجدون فيها دلائل وشواهد تساعدهم في بحثهم عن أصول النظم الاجتماعية في أبسط صورها، وأن المنهج السليم يقتضي التقدم والانتقال من دراسة النظم الأكثر بساطة إلى النظم الأكثر تعقيداً حتى يتسنى للباحث أن يستعين في دراستها بما تعلمه من الدراسة السابقة. وهذه الجماعات التي تعيش في بيئات صعبة قاسية أخذت في التلاشي والانقراض نتيجة لانتشار الأمراض والأوبئة فيها، وبسبب الإدمان على تعاطي الخمور، بالإضافة إلى مطاردة الرجل الأبيض لهذه القبائل والفتك بها، وأخيراً بسبب الاختلاط والاندماج بشعوب أخرى.

إن انقراض هذه الجماعات معناه خسارة كبيرة للمعرفة الإنسانية لأنها تعتبر نماذج بنائية فريدة سوف تسهم دراستها مساهمة فعالة في فهم طبيعة المجتمع الإنساني.

وليس من شك في أن للشعوب البدائية أهمية وجاذبية لكل من يتأمل أو يبحث في طبيعة الإنسان والمجتمع. فهذه الشعوب لا تعرف الأديان المنزلة ولا اللغات المكتوبة ولا المعرفة العلمية المنظمة، ويعيش أفرادها - في الأغلب - في حالة من العري التام ولا يستخدمون إلا أبسط أنواع الأدوات، كما يعيشون في مساكن بسيطة ساذجة

---

[1] د. أحمد أبو زيد: مقال في مجلة عالم الفكر بعنوان (التطورية الاجتماعية)، العدد الرابع (كانون الثاني، شباط، آذار) لعام **1973**، ص **114-115**.

للغاية، فهي إذن شعوب خام، إن أمكن هذا القول، ومع ذلك فغالباً ما يعيش الأفراد هناك عيشة راضية في جماعات محلية سعيدة مؤتلفة. وقد يكون من العسير علينا أن نتخيل أنفسنا نعيش في مثل هذه الظروف، وقد نعجب، بل وينبغي لنا أن نعجب: ما الذي يساعد هؤلاء الناس على العيش معاً في انسجام واتفاق ويمكنهم من مواجهة أحداث الحياة في شجاعة وجلد على الرغم من قلة ما يستعينون به في معركتهم ضد الطبيعة وضد الأقدار؟ الواقع أن عدم امتلاك هؤلاء البدائيين للسيارات مثلاً وعدم وجود صحف يقرؤونها وعدم معرفتهم بنظام البيع والشراء وغير ذلك يجعلهم أكثر جاذبية وتشويقاً وأدعى إلى الاهتمام بهم، لا العكس. ففيهم نرى الإنسان يجابه القضاء بكل عنفه وقسوته وآلامه، دون أن يكون لديه هو من أسباب المدنية ما يدرأ عنه هذه الآلام، أو يلطف من وقعها، أو يقدم له العزاء والمواساة. والفضل في ذلك يرجع إلى النظام الأخلاقي الذي يعيشون فيه، والذي يوفر لهم الأمن والطمأنينة وكذلك إلى القيم التي تهوّن من أعباء الحياة وتجعلها محتملة. وحري بالبحث الدقيق أن يكشف عن وجود أبنية اجتماعية معقدة وثقافات خصبة تكمن وراء تلك البساطة السطحية التي تميز حياتهم. لقد تعودنا أن نفكر في الثقافة والنظم الاجتماعية في حدود الثقافة المادية وكبر الحجم، وبذلك لم نعد نرى عند الشعوب البدائية ثقافة أو نظماً اجتماعية، إلا إذا نقبنا عنها بالفعل. وحينئذٍ فقط سوف نكتشف أن كل هذه الشعوب البدائية تؤمن بالدين، وأن هذا الإيمان يتمثل في شكل معتقدات يقينية وشعائر، وأنها تعرف الزواج الذي يتم عن طريق مراسم وطقوس معينة، كما تعرف الحياة العائلية التي تتركز في البيت، وأن لها جميعاً نظماً قرابية تفوق - في الأغلب - في تعقيدها واتساع نطاقها كل نظم القرابة المعروفة في المجتمع الأوروبي، ومنتديات وجمعيات خاصة تخدم أغراضاً محددة مرسومة، وقواعد دقيقة محكمة ترسم أصول اللياقة وآداب السلوك، وتشريعات تضع أسس القانون المدني والقانون الجنائي التي تطبقها محاكمهم، ولغات تبلغ في كثير من الأحيان درجة عالية من التعقيد سواء من ناحية الأصوات أو القواعد، وتشتمل على ذخيرة وافرة من الألفاظ وآداباً وطنية تتألف من الشعر الذي يعكس كثيراً من الرمزية، وكذلك من الأخبار التاريخية والأساطير والقصص الشعبي

obeikandl.com

والحكم والأمثال، وفنوناً تشكيلية خاصة بهم، ونظماً للفلاحة والزراعة تتطلب معرفة واسعة باختلاف الفصول وأنواع التربة والحياة النباتية والحيوانية، وخبرة عالية بصيد السمك وقنص الحيوان والملاحة في البحر والسياحة في الأرض. كما أن لديهم جميعاً رصيداً هائلاً من المعرفة المتعلقة بشؤون السحر والعين الشريرة والعرافة والتنبؤ، وهي كلها أمور لا نعرف نحن عنها شيئاً بالمرة. وهذا يتأدى بنا إلى مظهر آخر للأنثروبولوجيا، وهو مظهر أكثر شمولاً لأنه يتعلق بما نكتسبه عن طريقها من معرفة بطبيعة المجتمع البشري في عمومه وليس بالمجتمعات البدائية فحسب. فإن ما نعرفه عن مجتمع معين بالذات قد يفيد في التعرف على مجتمع آخر وبالتالي كل المجتمعات الأخرى، سواءً في ذلك المجتمعات التاريخية أو المجتمعات المعاصرة. ولنضرب على ذلك مثلاً تاريخياً محدداً. لقد كُتب الشيء الكثير عن قبائل البدو في بلاد العرب قبل الإسلام، ومع ذلك فلا تزال ثمة مسائل كثيرة تتعلق ببنائهم الاجتماعي لا يمكن الإجابة عنها من البيانات والشواهد التاريخية التي بأيدينا، بيد أننا نستطيع أن نلقي بعض الضوء على هذه المسائل بدراسة البناء الاجتماعي للبدو المعاصرين في الجزيرة العربية على اعتبار أنهم لا يزالون يحتفظون في حياتهم بمعظم ملامح الحياة التي كانت سائدة عند العرب القديمة. فعن طريق فهم الثقافات والمجتمعات الأخرى يستطيع المرء أن يرى ثقافته من كل الزوايا والنواحي، وأن يفهمها فهماً أفضل في ضوء كل التجربة والمجهود البشريين.

لقد أصبحت المجتمعات البدائية متأثرة كل التأثر بتقنيات الغرب وتأثيراته، بل حتى بقيمه، حيث إن التنظيمات المجتمعية وأنماط التفكير والمعتقدات الأصلية والمخصوصة التي كان يدرسها الباحثون باتت متغيّرة كلياً وأسفرت عن ولادة ثقافات جديدة. والواقع إن الاستعمار، ودخول النقد، وظهور الملكية الفردية في هذه المجتمعات، ونشأة الدول الجديدة المستقلة على أراضيها، قد عصف ببناها القديمة وزج بها زجاً مبيناً في معمعة التاريخ العام[1].

---

[1] د. أحمد أبو زيد: محاضرات الأنثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية - بيروت 1978، ص 199-203.